

د. عبد الرحمن البر يكتب : من روائع ابن مسعود في تدبر القرآن



الأربعاء 18 أغسطس 2021 12:06 ص

• أصحاب ابن مسعود يتذكرون حديثه حول بعض الآيات

أخرج الطبراني عن أبي الصُّحَي، قَالَ: اجْتَمَعَ مَسْرُوقٌ، وَشَتَيْرٌ بُنُ سَكَلٍ فِي الْمَسْجِدِ، فَتَعَرَّضَ إِلَيْهِمَا جَلُؤُ الْمَسْجِدِ، فَقَالَ مَسْرُوقٌ: مَا أَرَى هَؤُلَاءِ جَلَسُوا إِلَيْنَا إِلَّا لِيَسْمَعُوا مِنَّا خَبْرًا، فَإِنَّمَا تُحَدِّثُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَأَصْدَقِكَ، وَإِنَّمَا أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ وَتُصَدِّقُنِي، فَقَالَ: حَدَّثْنَا أَبَا عَائِشَةَ.

فَقَالَ مَسْرُوقٌ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «الْعَبْتَانِ تَرْبِيَانِ، وَالرَّجُلَانِ تَرْبِيَانِ، وَالْبَيْدَانِ تَرْبِيَانِ، وَبُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْخُ، وَتُكذِّبُهُ»، قَالَ: نَعَمْ، وَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ.

قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «إِنَّ أَجْمَعَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ حَلَالٌ، وَحَرَامٌ، وَأَمْرٌ، وَنَهْيٌ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ.

قَالَ: فَهَلْ سَمِعْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «إِنَّ أَكْبَرَ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ تَفْوِيضًا: «وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: وَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ.

قَالَ: وَهَلْ سَمِعْتَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «إِنَّ أَسَدَّ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَرَحًا: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَأَنَا قَدْ سَمِعْتُهُ.

وأخرج الطبراني عن الشَّعْبِيِّ، قَالَ: جَلَسَ مَسْرُوقٌ، وَشَتَيْرٌ بُنُ سَكَلٍ فِي مَسْجِدِ الْأَعْظَمِ، فَرَأَاهُمَا نَاسٌ فَتَحَوَّلُوا إِلَيْهِمَا، فَقَالَ مَسْرُوقٌ لِشَتَيْرٍ: إِنَّمَا تَحَوَّلَ إِلَيْنَا هَؤُلَاءِ لِنُحَدِّثَهُمْ، فَإِنَّمَا أَنْ تُحَدِّثَ وَأَصْدَقِكَ، وَإِنَّمَا أَنْ أُحَدِّثَ وَتُصَدِّقُنِي، فَقَالَ مَسْرُوقٌ: حَدَّثْتُ أَصْدَقَكَ.

قَالَ شَتَيْرٌ: نَبَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، «أَنَّ أَعْظَمَ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» إِلَى آخِرِ الْآيَةِ»، فَقَالَ مَسْرُوقٌ: صَدَقْتَ،... وَذَكَرَ بَاقِيَ الْحَدِيثِ.

وأخرج سعيد بن منصور في التفسير من سننه عن أبي الصُّحَي، عن مَسْرُوقٍ، قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ يَقُولُ: «مَا مِنْ سَمَاءٍ، وَلَا أَرْضٍ، وَلَا سَهْلٍ، وَلَا جَبَلٍ، أَعْظَمَ مِنْ آيَةِ الْكُرْسِيِّ». قَالَ شَتَيْرٌ: وَأَنَا قَدْ سَمِعْتَهُ.

• عمر يعلم بوجود ابن مسعود من روعة جوابه

وأخرج أبو طاهر السلفي عن الشَّعْبِيِّ قَالَ: «لَقِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَكْبًا فِي سَفَرٍ لَهُ لَيْلًا فِيهِمْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، فَأَمَرَ عُمَرُ رَجُلًا يُنَادِيهِمْ؛ مِنْ أَيْنَ الْقَوْمُ؟ فَأَجَابَهُ عَبْدُ اللَّهِ: أَقْبَلْنَا مِنَ الْعَجِّ الْعَمِيقِ، فَقَالَ: أَيْنَ تُرِيدُونَ؟ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: الْبَيْتَ الْعَتِيقِ، فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّ فِيهِمْ لَعَالِمًا.

فَأَمَرَ رَجُلًا يُنَادِيهِمْ: أَيُّ الْقُرْآنِ أَعْظَمُ؟ فَأَجَابَهُ عَبْدُ اللَّهِ: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ» حَتَّى خَتَمَ الْآيَةَ.

قَالَ: نَادِيهِمْ: أَيُّ الْقُرْآنِ أَحْكَمُ؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ»

فَقَالَ عُمَرُ: نَادِيهِمْ: أَيُّ الْقُرْآنِ أَجْمَعُ؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ».

فَقَالَ عُمَرُ: نَادِيهِمْ: أَيُّ الْقُرْآنِ أَحْرَنُ؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيٍّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْرَ بِهِ» الْآيَةَ.

فَقَالَ عُمَرُ: نَادِيهِمْ: أَيُّ الْقُرْآنِ أَرْحَى؟ فَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ» الْآيَةَ.

فَقَالَ عُمَرُ: نَادِيهِمْ: أَفِيكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ؟ فَقَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ.

• فرح ابن مسعود بآيات التوبة والمغفرة

أخرج عبد الرزاق في التفسير عن ابن مسعود رضي الله عنه، قَالَ: «خَمْسُ آيَاتٍ فِي سُورَةِ النَّسَاءِ لَهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا جَمِيعًا:

﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِتَابَاتِ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يضاعفها﴾.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ نَمَّ بِسُوءِ اللَّهِ يَجِدُ اللَّهَ عَفُورًا رَجِيمًا﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُقَرِّفُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أَوْلِيكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَجِيمًا﴾.

وأخرج البيهقي في الشعب عنه قَالَ: «أَزْبَعُ آيَاتٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»، وَسَرَدَهَا.

قَالُوا لَهُ: وَأَيْنَ هِيَ؟ قَالَ: «إِذَا مَرَّ بِهِنَّ الْعُلَمَاءُ عَرَّفُوهُنَّ».

قَالُوا: فِي أَيِّ سُورَةٍ؟ قَالَ: «فِي سُورَةِ النَّسَاءِ قَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ الْآيَةَ».

قال البيهقي: «وَرُوِّيَنَاهُ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ فِي فَصَائِلِ الْقُرْآنِ بِإِسْنَادٍ آخَرَ، وَرَادَ آيَةَ حَامِسَةً قَوْلُهُ: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كِتَابَاتِ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ الْآيَةَ».

• تفسيره لخروج الكلمة الطيبة من الخبيث أو العكس

أخرج ابن أبي حاتم عن يحيى بن الجزار، قَالَ: جَاءَ أَسِيرٌ بِنُ جَابِرٍ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ فَقَالَ: لَعَدْتُ سَمِعْتُ الْوَلِيدَ بْنَ عُقْبَةَ الْيَوْمَ تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ أَغْجَبَنِي.

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: «إِنَّ الرَّجُلَ الْمُؤْمِنَ تَكُونُ فِي قَلْبِهِ الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ تَتَجَلَّجَلُ فِي صَدْرِهِ حَتَّى يُخْرَجَ مِنْهَا، فَيَسْمَعُهَا رَجُلٌ عِنْدَهُ مِثْلُهَا فَيَضُمُّهَا إِلَيْهِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ الْفَاجِرَ لَيَكُونُ فِي قَلْبِهِ الْكَلِمَةُ عَيْرُ الطَّيِّبَةِ تَتَجَلَّجَلُ فِي قَلْبِهِ مَا يَسْتَعِفُّ حَتَّى يَلْفِطَهَا، فَيَسْمَعُهَا الرَّجُلُ الَّذِي عِنْدَهُ مِثْلُهَا فَيَضُمُّهَا إِلَيْهَا».

ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ: «الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ».

• الموت خير للبر والفاجر

أخرج أبو داود في الزهد والطبري عن عبد الله، قَالَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ بَرَّةٍ وَلَا فَاجِرَةٍ إِلَّا الْمَوْتُ خَيْرٌ لَهَا. لَيْنَ كَانَتْ بَرَّةً فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ﴾ (آل عمران 198)، وَلَيْنَ كَانَتْ فَاجِرَةً فَقَدْ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ مِلِّيَ لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّ مِلِّيَ لَهُمْ لَيْرْزَادًا وَإِنَّمَا﴾».

• كيف لا يسمع أهل النار

أخرج ابن أبي الدنيا والطبري عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «إِذَا بَقِيَ فِي النَّارِ مَنْ يُحَلَّدُ فِيهَا جُعِلُوا فِي تَوَابِيَتْ مِنْ حديدٍ فِيهَا مَسَامِيرُ مِنْ حديدٍ، ثُمَّ جُعِلَتْ تِلْكَ التَّوَابِيَتْ فِي تَوَابِيَتْ مِنْ حديدٍ فِيهَا مَسَامِيرُ مِنْ حديدٍ، فَمَا يَرَى أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يُعَذَّبُ فِي النَّارِ عِزْرُهُ» ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ لَهُمْ: «لَهُمْ فِيهَا رَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ».

• متى ينصرف أهل الموقف إلى الجنة والنار

أخرج ابن المبارك عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «لَا يَنْتَصِفُ النَّهَارُ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ حَتَّى يَقْبَلَ هَؤُلَاءِ فِي الْجَنَّةِ، وَهَؤُلَاءِ فِي النَّارِ»، ثُمَّ قَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا»، ثُمَّ قَرَأَ: (ثُمَّ إِنَّ مَقِيلَهُمْ لِآلَى الْجَحِيمِ).

هكذا قرأها ابن مسعود ، وقرأها الباقون «ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لِآلَى الْجَحِيمِ».

• ابن مسعود يحرض تلامذته على اتباع منهجه في التدبر والاستنباط

أخرج البيهقي في الشعب عن الْأَسْوَدِ، وَعَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آيَتَيْنِ فِي كِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، لَا يَفْرَاهُمَا عَبْدٌ عِنْدَ ذَنْبٍ يُصِيبُهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْهُ إِلَّا عُفِرَ لَهُ»، قُلْنَا: أَيُّ شَيْءٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ؟، قَلَّمَ يَخْبِرُنَا.

فَقَتَحْنَا الْمُصْحَفَ فَقَرَأْنَا الْبَقْرَةَ فَلَمْ نُصِبْ شَيْئًا، ثُمَّ قَرَأْنَا النَّسَاءَ وَهُوَ فِي تَأْلِيفِ عَبْدِ اللَّهِ عَلَى إِثْرِهَا، فَانْتَهَيْتَا إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ «وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا»، قُلْتُ: أَمْسِكْ هَذِهِ.

ثُمَّ انْتَهَيْتَا إِلَى النَّسَاءِ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ الَّتِي يُذَكَّرُ فِيهَا «وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»، فَاطْلَبْنَا الْمُصْحَفَ.

فَأَخْبَرْنَا بِهَا عَبْدَ اللَّهِ، فَقَالَ: «هُمَا هَاتَانِ».

